

## بعض العوائد بنات العقائد

اراء الاقدمين في الموت والدفن

كنتُ يافعاً اذنتُ، مع رفقائي بين جنّات طرابلس الشام فوقفتنا في ساحة فضيرة تحت  
جيزة كبيرة وامانا اجداث حقيرة لا يحتاج منظرها الى برهان على انها مقبرة يدفن فيها  
الغرب الذي لا يملك مدفناً في مدافن المدينة - فسمنا صوتنا رخيماً يشد من خلف القبور  
شعراً متين المبنى تحيف المعنى لا ازال اذكر اسم شطرنه « حَفَفِ الرُطْبَةَ اِنَّا غُرْبَاءُ »  
و كنت كلما رقي درجة في سلم المرور اقرأ شيئاً من كتب الاوائل والاواخر عن  
الروح والاموات والمدافن يخطر على بالي المصراع السابق ذكره فأخاطب نفسي هل اراد  
الشاعر مجازاً لطيفاً ام انه ممن يعتقد ان الروح تظل ساكنة في الحد مع الرُمة ويطلب  
من طير الطريق ان يثد في سبره حتى لا يكون ثقيلاً عليها ليضنبا

قرأتُ اخيراً كتاباً لاحد طلاب فرنسا واساتذتها المشهورين فترددت كولينج أثبت  
هندي ان اكثر العوائد اصلها عقائد وان الشعر المذكور ربما كان مجازاً عند قائله  
لكنه حقيقة في عقائد الاوائل. فالباحث في تاريخ الانسان يجد انه منذ القدم وقبل ان  
يستثير بالبحث والفلسفة اعتقد ان الروح لا تفنى وان الموت وانحلال الجسم تكيف من  
تقلبات الحياة فكل حياة تفنى ويعقبها انتقال الى وجود ثانٍ - لكن تنوعت ظنوبهم في  
المصير هل تنتقل النفس الناطقة الى جسم آخر لتحييه ام تنتقل الى عالم آخر غير منظور  
ام تبقى دفينّة مع الجسم في الحد

فانتقال النفس من جسم بالي الى جسم نام اي التعمص لم يكن من رأي الشعوب  
الآرية القاخنة في الهند واوربا ومدائح الشيدا الدينية تنقض هذه الفكرة  
وانقلما الى النملك الاعلى مصدر النور، تصوّره المرء لما رغب في تشييد اعظم مبدئ  
ادبي وهو اكرام ذوي الفضيلة ليُتدى بهم ويُسج على منوالهم فقرّر ان نفس التقيد  
العظيم في اعماله ويؤمّ ويقام تطير طاهرة حين انحلال الجسم الى طيين فتسكن هناك  
مشغولة بالسعادة مطوّقة بالمناة

لكن الرأي النظير قبل ان اختمر عقل الانسان رجّح ان النفس تظل دفينّة تحت  
الارض في الحد الذي دُفنت فيه الجثة وانها لا تنفصل عن الجسم شريكها في الحياة ولو

اضل " توابا او احترق رمادا كما جاء في شعر الشاعر الروائي اليوناني اوربيدس والفيلسوف الخطيب الروماني شيشرون ومن ذلك نشأت عادة بناء المدافن رحيبة مزخرفة عن قدر بانيتها وخزن المآكل فيها حتى تفنذي نفس الفقيد

وشعائر الدفن عند القدماء ثبت بأجلى بيان اعتقادهم بان القبور مساكن الارواح . فمدافن المصريين العظيمة البديمة ناطقة بوجوداتها وتعاويرها ونقوشها وموميائها هذا الرأي . وقال فرجيليوس أكبر شعراء الرومان حين وصف جنازة بوليودور « ايها اللحد انا نأتمتك على روح فقيدنا الحية »

وورد مثل هذا المقال في كتب الشاعر أئيدبيوس والفيلسوف بلينيوس الرومانيين وذكروا شيشرون « ان قدماء الرومان اعتقدوا الرحية الارواح » وقال الشاعر اليوناني اسكيلا خطيبا من ابن الى ابيه الخوفى « يا روح ابى المتألهة المدفونة تحت الترى » وقال اوربيدس عن السنث في التراخيدا المشهورة « سيقف العابر بجانب لحدود ويقول دفينه هنا روح الله سميدة » واخلى الرومان على الطيف وصف مصبور فقالوا Dieux — Mânes وخطب شيشرون الرومان بقوله « قدموا القرايين الى الارواح فانها بشر فارقت الحياة واحترموا حقوقهم الالهية فاقبوروا الأحياء كل مقدسة »

ويرى مثل ذلك في كتب المنود كما ورد في مدائح الفيدا وفي كتاب شرائع مانو الذي قال بان عبادة الارواح من اقدم العادات . وظلت هذه العادة بسوطة الجناح ولو سام لوقها مذهب التتمص . واضطر مؤلف هذه الشرائع رغمًا عن التنافض بين هذا المذهب وتلك المادة ان يقرر بقاءها في كتابهم المقدس لرسوخ اصولها في عقول الأهلين . وهذا اعظم دليل على ان مظاهر العبادة التي ألها احياء من الناس تطول آجالها ولو شاخت ودمرت العقائد التي ولدتها . ولا يزال المنود حتى اليوم يقدمون القرايين الى ارواح اسلافهم

وكانت العادة عند قدماء اليونان والرومان ان يخاطبوا ثلاثا روح الفقيد ساعة يوارونها التراب قائلين « هسى ان يطيب ثراك وتحف وطأته عنك » ومنه قولنا حتى الآن « رضي الله عنه وطيب ثراه » فتغيرت العقيدة ولتت العادة . فمن هنا يستفاد الآن ان روحا خالدة تكن بعد فناء الجسم في لحد ضيق تحت الترى

وما اكتفى القدماء بوضع المآكل في القبر مع الفقيد بل قرنوها بكلمة زعموا انه

يعزوه كالملايس والسلاح والآية وسقيا ضريبة بروحيق فاخر ونحروا عليه الجياد والارقاء زعماء انه يحتاج الى خدمتها بعد المات كما كان في الحياة . وذكر اوريدس الشاعر في تراجديا مكتوبا ان عطاء فواد اليونان بعد قوزم على تروادة عادوا الى بلادهم وكل منهم يقود جارية اختارها من خيار الاوانس التروادية فاعتزشت روح اخيلاً بطلمهم الاهظم المتوفى وطلبت نصيبها من السي فأعطيت بروكسيلن غادة رائحة الجمال من خيار اسرة المغلوبين كان اخيلاً احبها في حياته

وكانت الهدايا ترسل الى الاموات كما ذكر المؤرخ ثوسيديدس اليوناني . وبولخ في ذلك حتى حظر المشرع سولون ان يدفن مع الميت اكثر من ثلاثة اثواب كما ورد في مقال فلوطرخس عنه . وتأسف المفكر الحكيم لوقيانوس على بلاء الملايس تحت الارض بلا فائدة للاحياء . وظلت هذه العادة جارية حتى في زمن الحضارة الرومانية فكيف دُفن من التحف والملايس مع بوليوس ليصر وقد ذكر ذلك اكبر مؤرخي الرومان تاشيتوس

ان بيتا من الشر المكين بينى عن الزمان اكثر من بيت بني بحجر الصوان وينير الخلف ما ادلهم من عادات السلف فقعيدة من الشاعر اليوناني بندار مضى عليها الفان وخمسمائة سنة تنبنا عن عادات اسلافه من قدماء اليونان في هذا الشأن وعقائدهم قال « ان احد عظماء قومي واسمه فريكوس فر من وطنه مضطراً وحل في بلاد الكولثيد ( جنوب جبال قوقاز ) وتوفي فيها فطار طيفه الى صديقه بلياس يستجده ليبادر الى محل غرقه ولينقل رثته فان روحه غير المنفصلة عنها لا يترها قرار ان لم تعد الى تربة الوطن ومدفن العائلة »

\*\*\*

نشأ بناء المدافن من هذه العقيدة فالجنان اخلي من قبر خاص تظل روحه حسب زعمهم هائمة على وجه الارض بدون راحة . وهذه الروح الهائمة سماها العرب جنأ كما ذكر محيط المحيط « قال ابو البقاء ظاهر كلام الفلاسفة ان الجن والشياطين هم النفوس البشرية المفارقة عن الابدان بحسب الخير والشر » وذكر ابو وهب « ان الجن منهم يأكلون ويشربون »

والنفس الهائمة بدون مأوى تسرح في قعر الشقاء والضنى تدفنها الآمة ويحرقها الغضب الى الانتقام من الاحياء فتريشهم بسهام الازدى وتصب عليهم سيل البلايا

حتى يبدأ روعها بدفن الجسم المنفصلة عنه في لحد خاص به ويُقدّم لها ما كانت تحتاج إليه في حياة الجسم حتى يئبأ بانها وبقي الميت سعيداً  
 ذكر المؤرخ سويتون مؤرخ القيصرية ان بدن القيصر كاليفرولا الظالم العاشم دفن في الارض بعد فتك الناس به بلا اكرام ولا احترام للعقائد المألوفة فظلت نفسه هائمة تظهر من آن الى آخر للاحياء بشكل عجيب حتى نالوارضها ينبتش الجسم من توبته واجراء الشعائر المألوفة له

ولقد كان الآريون القدماء يخافون من تقصير الاحياء بواجباتهم لم بعد المات — قال هوميروس شيخ الشعراء وإمامهم في قصيدته الشهيرة بالايادة على لسان بطل تروادة هكتور حين اصاب منه اخيلا الفصرغام وقتلاً والقاهُ صريعاً «أناشدك بكلمة يمزج عليك بحياتك وياملك ان لا تلتقي جسمي طعاماً لكللاب سفنكم فاقبل ما يبدله لك والذي من المال برداً له جثاتي حتى تجري له رسوم الاحتنال المألوفة» او كما في ترجمة البستاني فقال بقصة المتنبي «بروحك مصرعي بكفي بحمرة والديك وركبتك عليك بالالطف وخذ ما شئت من ابوي من ذهب ومن صغري فلا تخلو الكلاب بجثتي في ذلك الجرف وجد لها يجسي يذمبات يد لصرحها فحرق اعظمي وعلي يهجر وابل الطرف» وورد مثل ذلك في رواية اتينخونا للشاعر صوفوقليس حيث قال انها اتجمعت المات حتى لا يبقى اخوها بلا دفن

وكان من الدماء على الاعداء كما ذكر فوجيلوس اشعر شعراء الرومان قولهم عسى بيت جسمه بلا ماوى بعد الفناء . وظل هذا الزعم سائداً رغمًا عن رقي الافكار وتنبؤ الابواب حتى ان عامة الشعب في ايتنا طلبت من الحكومة تنفيذ العقاب على امراء البحر الذين كان شغلهم الشاغل في المواقع ظفر الاسطول والتنكيل بالعدو غير سائلين باقامة الشعائر للاموات من الوثنيين وكانوا يشتمونهم عوضاً عن الشكر والشاء لاستقلالهم في انقاذ الوطن . وهكذا حال العامة النبية في كل زمان ومكان تنسب الكفر والالحاد الى كل من ينصرها اذا مس طرفاً من شعائرها فاتهموا اعطاء كوادم انهم تلامذة الفلاسفة الذين لا يعتقدون بانصال النفس بالجسد بعد الوفاة . جاء ذكر ذلك في تاريخ اليونان للمؤرخ زينوفون

وذكر اسكيلا وادريديس وصوفوقليس شعراء اليونان ان حكومات اقدم المدن اليونانية كانت شرائها تحظر دفن الجرمين حتى تظل ارواحهم هائمة نية عقاباً لم .

ووصف فرجيليوس في قصيدة الأنايد وهي الدرّة البتحة في اشعار الرومان كيف كانت الشعوب اللاتينية أمتقداً ان فقيدهم تحت الثرى يحتاج الى الغذاء فقال « لا تزال حتى الآن العادة جارية بالتردد على المقابر وذوو الفقيده يأخذون معهم أكاليل من الازهار الجميلة يطوقون بها الصريح ويفسرون عليه حلوى وفاكهة وملحاً ويمسكون عليه اللبن الحليب والحمر الممتعة واحياناً دم الصعيرة . وقد استمرت هذه العادة في بلادنا الشرقية على شكل آخر واعتقاد مخالف تماماً لاعتقادهم فالشرق مع اعتقادهم بخلود النفس وصعودها بعد فناء الجسم الى محل الرفع الذي يحط منه لتثاب او لتعاقب في النعيم او الجحيم ظلّ معتاداً على زيارة المقابر من حين الى آخر وتأخذ السيدات الاطعمة والاشربة معهم يقضين نهارهنّ مجتمعات بين الاضرحة . فتشأن بين السابقين واللاحقين اولئك كانوا يأخذون الاطعمة والاشربة لامواتهم فيسكبون الاشربة على الصريح وحواليد ويلقون الماء كل من ثقب متصل بداخله وتذهب نساء الشرق في يومنا الحاضر لتذكار الفقيده في المقابر حاملات ما طاب من الماء كل لغذائهنّ لا لغذاء الفقيده . وقد حصل الانواط في نوع الزيارة حتى انتقد عليها كثيرات من كرام العقائل . وكما أخذت على هذه العادة انها استستحجة للاجتماع والملاهي كذلك انتقدتها المنكرون من الاوائل قال الفيلسوف لوقيانوس هازناً « يتوهم الناس ان الارواح تنبعث من الارض لتأكل التقدّمات وتشرّب الممتعات المبدولة حوالى الصريح . ما قولك في هذه العقول انقلّ الروح على الطوى والظلمة مذبذبة اذا حرمت منها ؟ »

فمن اليوم في عصر النور نستحسن ما قال لوقيانوس ونسحب جرأته الادبية في عصر كانت فيه هذه العادة بنت العقيدة — ويجب علينا استصواب مظاهر الفكر وتخطئة كل من يهيج العامة ضد المنكرين فلا ترقى بلاد نقيده الفكر عن انتقاد ما يراه سداً مانعاً للتقدم وضرراً على هيئة الاجتماع . فالحقيقة بنت البحث ولا تقدر شرارها الا على زناد الاحشاك — ولو ألجئت افكار الفلاسفة من مثل لوثيروس وغيليو وڤولتر ودارون وغيرهم الذين أقيمت لهم النصب والتماثيل في بلاد النصرانية رغبنا عن انتقادهم الشديد على شعائرهم وكتاباتهم المنافية لبعض عقائدها لكنا جواد التمدن اي كيوه — حذار حذار من الضغط على العقول ان كنا نريد ادراك المعالي بين الامم — رحم الله قاسم بك امين كم اتاد البلاد بجرأتها الادبية